

الكسل والخمول وتعطيل الأسباب ويزعم صاحبه أنه متوكل على الله؛ فهذا عجز مذموم استعاذ منه النبي ﷺ، واستعاذ من الجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال.

وكان ناس يحجون مع المسلمين وليس معهم زاد للسفر، ويزعمون أنهم متوكلون على الله وأن الرزق سيأتيهم بدون أن يأخذوا معهم الزاد؛ فالله - جل وعلا - قال: ﴿وَتَكْرَهُدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]. أمرهم باتخاذ الزاد.

والزاد قسمان: زاد للدنيا، وزاد للآخرة:

فزاد الدنيا: يكون بالطعام والشراب والملابس وسائر ما يحتاجه الإنسان من زاد المسافر.

أما زاد السفر للآخرة: فهو التقوى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

فتزود لدنياك وتزود لآخرتك، فتزود لدنياك بالطعام والشراب وأهبة السفر؛ بحيث لا تكون عالة على غيرك، وتزود لآخرتك بالتقوى وهي فعل أوامر الله ﷻ وترك نواهيه.

فالتقوى معناها: أن تتخذ وقاية تقيك من عذاب الله ومن غضبه وتقيك من النار، وهذه الوقاية إنما تكون بالأعمال الصالحة، وبتقوى الله ﷻ تحصل النجاة من النار كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مریم: ١٧٢].

فلا يقي من النار إلا الأعمال الصالحة، فالإيمان بالله ﷻ والعمل الصالح هو زاد الآخرة، وهو الوقاية من غضبه ومن ناره ومن عذابه،

فالعبد مأمور بمصالح دينه ودنياه، ومأمور بمصالح دنياه وآخرته، ومأمور بالتوكل على الله ﷻ، ومأمور بفعل الأسباب، فلا بد من الجمع بين هذا وهذا.

فلا يفهم أحد أن معنى التوكل على الله تعالى: ترك الأسباب النافعة؛ هذا غلط، ولا يفهم أحد أيضًا: أن فعل الأسباب يكفي عن التوكل على الله، بل لا بد من الأمرين: التوكل على الله، وفعل الأسباب النافعة.

وقد قال النبي ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خِمَاصًا وتروح بَطَانًا». رواه أحمد والترمذي وحسنه^(١).

فقوله: «لو أنكم تتوكلون على الله». يعنى: تعتمدون عليه، وتعلقون آمالكم، وتثقون بوعده ﷻ؛ «لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِمَاصًا»: تذهب أول النهار لطلب الرزق؛ لأن الغدو معناه: أول النهار، تغدو من أوكارها خِمَاصًا، يعنى: جائعة، وتروح يعنى: ترجع آخر النهار، بَطَانًا يعنى: مليئة البطون بالرزق.

فلاحظوا أن الطير لم تبق في أوكارها بل بذلت السبب، وخرجت من أوكارها وذهبت إلى مواطن الرزق تبحث عن الرزق.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٠/١)، ورواه الترمذي في سننه (٩٢/٧)، ورواه ابن ماجه في سننه (١٣٩٤/٢)، ورواه الحاكم في مستدركه (٣١٨/٤) كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فالطيور بفطرتها التي فطرها الله عليها علمت أنه لا بد من فعل السبب فخرجت تطلب الرزق، فالله - جل وعلا - رزقها فعادت مملوءة البطون برزق الله ﷻ.

فلو أنكم يا بني آدم عملتم هذا العمل؛ لرزقكم كما يرزق هذه الطيور، لكن حينما يُخل الإنسان بهذا الأمر فإنه يحصل له الخلل ويحصل النقص؛ فإن اعتمد على الأسباب وكله الله إليها كما في الحديث: «من تعلق شيئاً؛ وكل إليه»^(١). فيوكل الإنسان إلى الأسباب، والأسباب قد تكون مخففة ولا فائدة منها.

وإن أهمل الأسباب وتوكل على الله - بزعمه - كان مُخطئاً في ذلك وغير عامل بما أمر الله ﷻ، فإن الله أمر بفعل الأسباب، قال تعالى: ﴿وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالله قادر على أن ينصر المسلمين وأن يقتل الكفار؛ كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٤].

فالله قادر على أن يهلك الكفار في لحظة واحدة ويريح المسلمين منهم، ولكن الله بحكمته أراد:

أولاً: أن يبتلي هؤلاء بهؤلاء لإعلاء كلمة الله ﷻ.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣١٠/٤)، ورواه الترمذي في سننه (٢٦٢/٦)، ورواه الحاكم في مستدركه (٢١٦/٤) كلهم من حديث عبد الله بن عكيم رضي الله عنه.

وثانيًا: أراد حصول الشهادة للمسلم في سبيله.

وثالثًا: أراد حصول الجهاد من أولياء الله، وبذل الروح والنفس **المعج** والاموال طاعة لله **تعالى**، فالجهاد عبادة من أعظم أنواع العبادة **قلو** أن الله أهلك الكفار بعذاب من عنده؛ تعطلت هذه المصالح **عطل** الجهاد، ولم تحصل الشهادة للشهداء ولم يحصل الصديق في **إيمان** بالله.

قال الله يتلى المؤمنين هل هم صادقون في إيمانهم؛ لأن الصادق في **إيمانه** يجاهد في سبيل الله وبذل نفسه وماله وراحته لإعلاء كلمة الله. أما المنافق الذي يدعي الإيمان وهو كاذب؛ فهذا يُحجم عن **جهاد** ويتأخر ويتبين النفاق من الإيمان الصحيح.

ففي جهاد الكفار مصالح، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا **تستعدون** مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. أي: أجهاد الكفار لا يحصل بالكلام **الدعاء** عليهم فقط، نعم الدعاء شيء طيب ووسيلة قوي، لكن **يكفي** وحده، بل لابد من مباشرة الجهاد.

قال الجهاد لا يكون إلا بعُدَّة، والعُدَّة سبب للنصر؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا **استعَدُّوا** مِنْ قُوَّةٍ﴾: قوة السلاح، وقوة الذخيرة، وقوة **للت** الجهاد، لكل وقت بحسبه.

ولا نقول: نحن مسلمون ومؤمنون وهؤلاء كفار، وسنتنصر عليهم **وإيماننا** دون أن نفعل أسبابًا؛ هذا غير صحيح، لابد في النصر من **الأسباب**، ولابد من ابتلاء وامتحان، ولابد من **تفحص**، ولابد

وثانيًا : أراد حصول الشهادة للمسلم في سبيله .

وثالثًا : أراد حصول الجهاد من أولياء الله ، وبذل الروح والنفس والمُهَج والأموال طاعة لله ﷻ ، فالجهاد عبادة من أعظم أنواع العبادة .
فلو أن الله أهلك الكفار بعذاب من عنده ؛ تعطلت هذه المصالح وتعطل الجهاد ، ولم تحصل الشهادة للشهداء ولم يحصل الصدق في الإيمان بالله .

فالله يتلى المؤمنين هل هم صادقون في إيمانهم ؛ لأن الصادق في إيمانه يُجاهد في سبيل الله وبذل نفسه وماله وراحته لإعلاء كلمة الله .
أما المنافق الذي يدّعي الإيمان وهو كاذب ؛ فهذا يُحجم عن الجهاد ويتأخر ويتبين النفاق من الإيمان الصحيح .

ففي جهاد الكفار مصالح ، قال الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] . أي : أن جهاد الكفار لا يحصل بالكلام أو الدعاء عليهم فقط ، نعم الدعاء شيء طيب وسلاح قوي ، لكن لا يكفي وحده ، بل لابد من مباشرة الجهاد .

فالجهاد لا يكون إلا بعُدَّة ، والعُدَّة سبب للنصر ؛ كما قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ : قوة السلاح ، وقوة الذخيرة ، وقوة آلات الجهاد ، لكل وقت بحسبه .

ولا نقول : نحن مسلمون ومؤمنون وهؤلاء كفار ، وسنتنصر عليهم بإيماننا دون أن نفعل أسبابًا ؛ هذا غير صحيح ، لابد في النصر من حصول أسباب ، ولابد من ابتلاء وامتحان ، ولابد من توضحية ، ولابد

من تقديم ما يدل على صدق الإيمان، قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [الأنعام: ٢-٣]. هذه هي حكمة الله ﷻ.

*** فلا بد في جهاد الكفار من أمرين:**

الأمر الأول - وهو الأساس - : التوكل على الله ﷻ.

والأمر الثاني: إعداد القوة، وإعداد الدفاع المناسب في كل وقت. فلا بد من الأمرين.

ولهذا لما حصلت وقعة أحد، وحصل ما حصل على المسلمين من الامتحان والجراح والقتل وانصرف الكفار، تشاوروا فيما بينهم -أي: الكفار- وقالوا: ما صنعنا شيئاً بمحمد وأصحابه لنرجع ونقض على بقيتهم، فأرسلوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: إننا سنرجع ونعود إليكم، وإننا جمعنا الجموع للرجوع واستئصال شأفتكم.

فما كان من النبي ﷺ وأصحابه -الذين هم مثقلون بالجراح- إلا أن خرجوا وبادروا بالخروج من المدينة، وذهبوا يطلبون العدو، وبعضهم مشخونون بالجراح، خرج الجرحى بجراحهم ولم يتخلف أحد منهم، فلما بلغ الكفار أن المسلمين خرجوا أوقع الله في قلوبهم الرعب، وقالوا: ما خرجوا إلا وفيهم قوة، فهرب الكفار؛ فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧١﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٣].

لَمَّا بَلَغَهُمْ تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ مَا قَالُوا إِلَّا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَلَمْ يَاقْتَصِرُوا عَلَى هَذَا؛ بَلْ خَرَجُوا وَفَعَلُوا الْأَسْبَابَ فَجَمَعُوا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ: ﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ وَفَضَّلَ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِمْ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٤-١٧٥].

فكانت النتيجة للمؤمنين بسبب توكلهم على الله وبسبب فعلهم للأسباب، ولو أنهم بقوا في المدينة ولم يخرجوا وقالوا كلاماً فيه لين مع الكفار أو فيه ضعف؛ لرجع الكفار حقيقة واستأصلوا شأفتهم، ولكن لَمَّا قَالُوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وخرجوا كانت النتيجة: ﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ وَفَضَّلَ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾.

هل هذه النتيجة حصلت مع الراحة وترك السبب وبزعم التوكل على الله فقط، أو حصلت بمجموع الأمرين؟!!

وهكذا دائماً وأبداً، وهذه سنة الله في خلقه أن من توكل عليه واتخذ الأسباب النافعة؛ أن الله - جل وعلا - لا يخيب سعيه، بل إن الله - جل وعلا - يكرمه ويحقق له ما أراد من الخير.

وقال ﷺ: ﴿وَحْذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢]. هذا خطاب للرسول ﷺ وأصحابه، وهم سادة المتوكلين على الله، قال: ﴿وَحْذُوا حِذْرَكُمْ﴾: لا تغفلوا عن العدو وتقولوا: إننا مسلمون متوكلون على الله، وسيكفينا الله شرهم؛ هذا لا يجوز، فلا يجوز الغفلة وإهمال شأن العدو، بل لا بد من ترصد أحواله ودراسة أموره وإعداد العدة لجهاده، ﴿وَحْذُوا حِذْرَكُمْ﴾ بمعنى: احذروا

عدوكم، وأخذ الحذر سبب من الأسباب بعد التوكل على الله ﷻ .
 فالواجب على المؤمن : أن يجمع بين التوكل على الله وفعل
 الأسباب النافعة ولا يركن إلى أحد الأمرين .

ولما خرج النبي ﷺ وأصحابه لغزوة حنين بعد فتح مكة ، وكان مع
 النبي ﷺ جيوش كثيرة اجتمعت مع الرسول ﷺ معها قوة وسلاح وعتاد ،
 قال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة ، فلما التقى المسلمون والكفار
 حصل على المسلمين ما حصل في أول القتال ، وحصل عليهم من
 المضايقات ومن تسلط العدو عليهم وخديعته لهم - الخديعة الحربية -
 حيث إن العدو أمهلهم حتى دخلوا في الوادي ، ثم انقض عليهم ، وسد
 عليهم خط الرجعة ، وحصل على المسلمين ما حصل بسبب الإعجاب
 بالكثرة ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ
 شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ
 اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿ [التوبة : ٢٥-٢٦] .

ولما أعجبهم كثرتهم أدبهم الله ﷻ وهم عباده المؤمنون مما يدل
 على أن الإنسان لا يعتمد على السبب أو يعجب بقوله أو يعجب
 بسلاحه دون أن يتوكل على الله ﷻ فلا بد من الأمرين : التوكل على
 الله ﷻ أولاً وقبل كل شيء ، ثم إعداد العدة الصالحة ، وبهذين
 الأمرين لن يغلب المسلمون بإذن الله ﷻ .

وإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لما أُلقي في النار - عليه الصلاة
 والسلام - قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقال الله للنار : ﴿ يَنَارُ كُونِي

بَرَدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وهذا بسبب توكله على الله ﷻ وتفويضه الأمر إلى الله ﷻ وتوكله عليه، وهو في هذه الحالة لا يملك غير التوكل، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. فالنار التي كانت تسقط الطير من جو السماء من حرارتها وعظمتها قال الله لها: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾. وصارت روضة خضراء.

وجاء في الحديث: «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حينما أُلقي في النار، وقالها مُحَمَّدٌ ﷺ حينما قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾»^(١). مما يدل على عظم التوكل، وأنه أعظم العدة وأعظم السلاح بيد المؤمن إذا توكل على الله ﷻ وفعل ما أمر الله به من اتُّخاذ الأسباب.

والنبي ﷺ -وهو سيد المتوكلين على الله- كان يأخذ بالأسباب، فكان يُجيش الجيوش، ويعد السلاح، ويأخذ الزاد في السفر، وكان ﷺ يلبس الدروع من الحديد على جسمه، وفي غزوة الخندق ظاهر بين درعين مع أنه رسول الله ﷺ والله قادر على أن يحميه، ولكن الله أمره باتُّخاذ الأسباب.

فعلى المسلم: أن يتفقه في هذا الأمر؛ لأن بعض الناس ربَّما يفهم أن معنى التوكل على الله: هو تفويض الأمر إلى الله، وترك الأسباب،

(١) أخرجه البخاري، حديث رقم (٤٥٦٣)، من حديث ابن عباس ؓ.

ويعطل الأسباب التي جعلها الله أسباباً نافعة، فيعطلها ثم ينتظر النتيجة؛ هذا ليس بصحيح.

ثمرات التوكل على الله تعالى

وأما ثمرات التوكل على الله: فهي كثيرة، أعظمها: أن الله ﷻ يكفيه ما أهمه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ١٣]. فمن فوض أمره إلى الله، واعتمد على الله وحده، واعتقد أنه لا يجلب الخير ولا يدفع الضر إلا الله ﷻ: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ يعني: فهو كافيه، يكفيه من جميع المحاذير؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فلما توكل على الله حق توكله؛ جازاه بأنه كان حسبه الذي يتولّى شئونه، فالله -جل وعلا- يتولّى شئونه ولا يكله إلى غيره؛ فهذا أعظم ثمرات التوكل.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾. أي: كافيك.

﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَقْوِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

فالحاصل: أن أعظم ثمرات التوكل على الله: أن الله يكون حسباً؛ أي: كافياً للمتوكل عليه، ولهذا ذكر الله عن نبيه نوح ﷺ أنه قال لقومه: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِتَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ [يونس: ٧١].

وقال عن نبيه هود عليه السلام: ﴿أَتَى بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٢﴾ مِنْ دُونِهِ فَاكْدُونِي

جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [مرد: ٥٤-٥٦].

وقال عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال عن نبيه مُحَمَّد - عليه الصلاة والسلام - : ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَفْضَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٥-١٩٧].

فأخبر سبحانه عن هؤلاء الرسل الكرام أنهم تحدوا أقوامهم وأهتتهم أن تضرهم بشيء؛ لأنهم متوكلون على الله عز وجل، ومن توكل على الله كفاه.

* ومن ثمرات التوكل: استجلاب محبة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فمن توكل على الله حقيقة التوكل؛ فإن الله يحبه، وإذا أحبه الله؛ سعد في الدنيا والآخرة بأن يكون من أحبب الله ومن أوليائه.

* ومن ثمرات التوكل على الله - جل وعلا - : أن الإنسان يقدم على فعل ما ينفع ولا يهاب ولا يخاف إلا من الله عز وجل، فالمجاهدون الذين يخوضون المعارك مع الكفار إنما فعلوا هذا لأنهم متوكلون على الله عز وجل، فأكسبهم التوكل شجاعة وقوة، هانت أمامهم كل المصاعب وكل المشاق، وتلذذوا بالموت في سبيل الله عز وجل، ونالوا الشهادة في

سبيله ، كل هذا بسبب التوكل على الله ﷻ .

* ومن ثمرات التوكل على الله - جل وعلا - : أنه ينشط على طلب الرزق وعلى تحصيل العلم وعلى كل الأمور النافعة ، فإن المتوكل على الله يمضي ويتشجع في طلبه للأمور النافعة ؛ لأنه يعلم أن الله ﷻ مع المتوكلين وأنه ينصر المتوكلين ، فيمضي في جميع أموره النافعة في الدين والدنيا ولا يتكاسل أو يكون مع الخاملين .

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم أشجع الناس ؛ لتحقيقهم التوكل على الله ﷻ حتى فتحوا المشارق والمغارب ، فتحوا البلاد بجهادهم ، وفتحوا القلوب بدعوتهم إلى الله ﷻ ؛ لأنهم متوكلون على الله معتمدون على الله ، قال تعالى : ﴿ يَتَأَبَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَبِّكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] .

فهم لا يخافون في الله لومة لائم ؛ لأنهم معتمدون على الله ﷻ كل الاعتماد ، ويفوضون أمورهم إليه كل التفويض ولا يلتفتون إلى غيره ، رضي الناس أو سخطوا ، ما داموا في رضا الله ﷻ ، وفي الحديث : «من التمس رضا الله بسخط الناس ؛ رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله ؛ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»^(١) .

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٣٥ / ١) ، ورواه الترمذي في سننه (١٣٣ / ٧) بنحوه كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها ، ورواه غيرهما .

فالا اعتماد على الله والتوكل على الله وتفويض الأمور إلى الله ﷻ ؛
أساس التوحيد وأساس العمل وأساس الخير ؛ ولهذا جعله شرطاً في
الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] .

بقيت مسألة تتعلق بهذا الباب : وهي مسألة التوكيل ، هل إذا وكلت
أحدًا في تحصيل أمر من أمورك في شراء سلعة لك أو استئجار شيء لك
أو في خصومة عنك ، هل معنى ذلك أنك توكلت على غير الله ؟ لا ،
ليس الأمر كذلك ، الوكالة غير التوكيل .

التوكل : هو الاعتماد والتفويض ، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ .

أما التوكيل : فهو إنباء للغير في تحصيل مطلب من المطالب المباحة
التي يقدر على تحصيلها ؛ فهذا سبب من الأسباب ، فأنت توكل الوكيل
من باب السبب ، وتتوكل على الله ﷻ في حصول المقصود من باب
العبادة ، ولا تتوكل على الوكيل وإنما تتوكل على الله .

فتوكيل الغير في بعض التصرفات لا يُخل بالعقيدة ، وليس هو توكلًا
على غير الله ، وإنما هو تعاون على المطالب ، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى
الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

فالوكيل : إنما هو معين للموكل قائم مقامه وسبب من الأسباب ،
فكما أن مباشرته للفعل سبب ، فكذلك مباشرة وكيله سبب من
الأسباب ، ولا يدخل هذا في باب التوكل على غير الله ﷻ .

هذا ؛ وأسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من المتوكلين على الله حق

توكله، الذين يعملون بالأسباب النافعة، ويتوكلون على ربِّهم،
ولا يعتمدون على غيره، ولا يفوضون أمورهم إلى سواه.
وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه أَجْمَعِينَ.

* * *

فهرس المصادر والمراجع

- ١ - تفسير جامع البيان في تفسير القرآن: أبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ، المَطبعة الأميرية، ببولاق، مصر، المُحمدية سنة ١٣٢٤هـ.
- ٢ - سنن ابن ماجه: أبي عبد الله مُحَمَّد بن يزيد القزويني، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث.
- ٣ - سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الريان للتراث - دار الحديث، مصر، ١٤٠٨هـ.
- ٤ - سنن الترمذي: أبي عيسى مُحَمَّد بن عيسى بن سورة الترمذي، المَكْتبة الإسلامية، إستانبول - تركيا.
- ٥ - صحيح الإمام البخاري: أبي عبد الله البخاري، دار الباز، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- ٦ - صحيح ابن حبان: أبي حاتم مُحَمَّد بن حبان البستي، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- ٧ - المُستدرك على الصحيحين: أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ٨ - مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، ودار الراية - الرياض - السعودية.

الحقوق الواجبة

على كل مسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه أَجْمَعِينَ .

وبعد: فإن الله ﷻ كرم بني آدم على سائر المخلوقات؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] .

وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ❶ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ❷ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [النبي: ٤-٦] .

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] .

فهذا الإنسان له ميزة على غيره بالعقل والتكريم، وتوفير النعم له وإمداده بكل ما يستعين به على ما يتفعه في دينه ودنياه .

فكل ما في هذا الكون مسخر لبني آدم، كما قال ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [البقرة: ١٣] .

قال ﷻ في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

[الإسراء: ٧٠] .

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

فهذا الإنسان يمتاز على غيره من كل ما يمشي على وجه الأرض، يمتاز بما أعطاه الله من الحواس والمدارك، وما منحه من العقل والتفكير، وما حَوَّلَه من النعم، فإنه ما أعطاه الله هذه الميزات عبثًا، ما أعطاه الله هذه الميزات وكرمه هذا التكريم عبثًا، بل لابد أن يكون ذلك لحكمة، وأن يكون لذلك نتيجة عظيمة، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ١١٥].

فهل يحسب الإنسان أنه أعطي هذه النعم ومُكِّن هذا التمكين، وأكرم هذا الإكرام من غير نتيجة ومن غير حكمة، ليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (١٢٦) ﴿أَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَنِّ يَتَّبِعُنِي﴾ (١٢٧) ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فِتْنَتِي فَسَوَّىٰ﴾ (٢٨) ﴿فَعَمَلُ يَوْمِ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرِ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٢٩) ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يُنْفِخَ الْمُؤْتِقُ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

فهذا التكريم وهذا الإنعام على هذا البشر له حكمة عظيمة، وليس من أجل أن يأكل ويشرب ويسرح ويمرح، أبدًا، ليس من أجل أن يعمل ما شاء مما تُمليه عليه رغباته وشهواته، ليس كذلك، بل لابد أن يكون وراء ذلك أمر عظيم، ما هو هذا الأمر؟ هذا الأمر أن الله كما كَرَّمَهُ وكما نَعَّمَهُ وكما أعطاه هذه العطايا العظيمة حَمَلَهُ مسؤولية عظيمة وأمانة كبرى إن قام بها فله الأجر العظيم عند الله، ويكون مصيره أحسن من مبدئه في هذه الدنيا.

إن الله أنعم على الإنسان في هذه الدنيا، ومكثه وكرمه، ولكن إذا أدى مستوليته على الوجه المطلوب؛ فعند الله له من التكريم في الآخرة ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، أعد الله له ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسيواصل الله له التكريم والإنعام دائماً في الدنيا والآخرة.

إذا قام بهذا الواجب وحمل هذه الأمانة بصدق وإخلاص؛ فإنه سيقدم على خير أكثر مما تركه في هذه الدنيا ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الفصص: ٦٠].

فهذا الإنسان لم يُخلق في هذه الدنيا لياكل ويشرب، ويتنعم ويشتهي ويعمل ما شاء، ليس كذلك، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ما هي الأمانة؟ هذه أمانة المسؤولية أمام الله -جل وعلا- وأمام خلقه، فهو مسئول عن تصرفاته، مسئول عن حركاته وسكناته، مسئول عن أعماله، مسئول عن جميع ما يصدر منه، يُحاسب ويُناقش، فإن أحسن فله الأجر والثواب عند الله ﷻ، وإن أساء فإنه متوعد بالعقاب، ولهذا قال بعد هذه الآية: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ٧٢ لِيُعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الَّذِينَ ضيعوا هذه الأمانة.

﴿وَيُؤْتِ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣]. الذين حفظوا هذه الأمانة، أمانة المسؤولية؛ المسؤولية أمام الله، وأمام خلقه، بأن

ينظروا إِلَى أَعْمَالِهِمْ وَيُحَاسِبُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَقِفُوا عِنْدَ تَصَرُّفَاتِهِمْ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا حَقًّا شَكَرُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا سَيِّئًا تَرَكَوهُ وَتَابُوا مِنْهُ وَاسْتَبَدَّلُوهُ بِالْحَسَنِ الْمَحْمُودِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ .

هذه الأمانة وهذه المسؤولية تتلخص في الحقوق التي أوجبها الله على هذا الإنسان ، هذه الحقوق هي التي بيَّنها الله - جل وعلا - بقوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء : ٣٦] .

هذه الحقوق العشرة في هذه الآية الكريمة هي التي حَمَلَهَا هذا الإنسان ، وكلفَ بِهَا وبالقيام بِهَا ، وكل إنسان عاقل فإنه لا يُعْفَى مِنْ هذه الحقوق إِلَّا مَنْ فَقَدَ الْعَقْلَ كَمَا قَالَ ﷺ : «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ : الصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ ، وَالْمَجْنُونِ حَتَّى يَفِيْقَ ، وَالنَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ»^(١) . مِنْ عَدَا هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ فَإِنَّهُ مَكْلَفٌ بِهَذِهِ الْحَقُوقِ ، فَإِنْ أَذَاهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ ؛ فَإِنَّهُ يَثَابُ عَلَيْهَا وَتَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ ضَيَعَهَا أَوْ ضَيَعَ شَيْئًا مِنْهَا ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُؤَاخَذًا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ .

وهذه الحقوق أولُهَا : قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ .

(١) رواه أبو داود في سننه (١٣٧/٤ - ١٣٩) بروايات عن عائشة ، وعن علي بن أبي طالب ﷺ .

هذا هو الحق الأول، وهو حق الله على عباده الذي خلقهم من أجله، ورزقهم وأوجدهم من العدم وغذاهم بالنعيم، حقه مقدّم على سائر الحقوق، فحقه ليس معناه أنهم يقدمون لله نفعًا ينفعون الله - جل وعلا - به، كلاً؛ لأنه ليس بحاجة إليه، وإنما يقدمون لأنفسهم ما يقربهم إلى الله ويُرضي الله عنهم رَحْمَةً بهم، فهذه العبادة ليس الله بحاجة إليها، وإنما العباد هم المحتاجون إليها؛ لأنّهم فقراء إلى الله - جل وعلا - في كل لحظة، وفي كل حالة لا غنى بهم عن الله طرفة عين، لكن لا يقربهم إلى الله ولا يربطهم بالله إلا العبادة.

فالعبادة سبب لعفو الله - جل وعلا - عنهم وإكرامه لهم وإنعامه عليهم في الدنيا والآخرة، فهم المحتاجون للعبادة، وإلا فالله - جل وعلا - غني عنها كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَأِنَّ اللَّهَ عَنِّيْ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّكُمْ عَلَيْنَا لِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ١٧].

وفي الحديث القدسي يقول الله - جل وعلا - : «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد

خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١) .

هذا هو المقصود من العبادة وهو راجع إلى المخلوق ، وكون الله أمره بالعبادة رَحْمَةً به من أجل أن تقربه إلى ربه ﷻ ومن أجل أن يفتح الباب بينه وبين الله فيستجيب دعاءه ويرحم ضعفه كما قال النبي ﷺ : «تَعَرَّفَ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً ، واعلم أن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(٢) .

كلمة معنى هذا : أنك تعلق بالله ﷻ قلبك لا تلتفت إلى غير الله ﷻ ، وإذا تعلق قلبك بالله ملاًه الله غنى ونوراً وإيماناً ، أما إذا أعرض قلبك عن الله أظلم وقسا وانقطع عن الله - جل وعلا - فلا يُستجاب لك دعاء ولا يُرفع لك عمل ، وحينئذ تكون من الخاسرين ، هذا هو المقصود من العبادة .

فأنت إذا تركت العبادة ضيعت نفسك ، وإلا فالله غني عن عبادتك لا ينقص من ملكه شيء ﷻ ، وله عباد غيرك يعبدونه لا يفترون ، فالله - جل وعلا - غني عنك ، لكن أنت الذي ضيعت نفسك مع الله - جل وعلا - ؛ فانتبه لنفسك .

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٤/١٩٩٤) من حديث أبي ذر ﷺ .

(٢) رواه الترمذي في سننه (٧/٣٠٢ ، ٣٠٣) من حديث ابن عباس ﷺ .

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴿[النار: ٥٦-٥٨]﴾. هذا يبين لنا أن العباد هم المحتاجون للعبادة، وأما الله - جل وعلا - فليس بحاجة إلى العبادة، ولكنه أمرهم بها لمصلحتهم، فالله إِنَّمَا يأمرنا لمصلحتنا، وينهانا لمصلحتنا: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴿.

ما أحد يرزق غير الله ﷻ: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقُكَ﴾ [الملك: ٢١]. لو أن الله منع الرزق من الذي يرزقك؟

تعريف العبادة

العبادة في اللغة: الذل والخضوع، أي: ذُلٌّ لله وخضوع له مع المَحبة والإجلال؛ لأن العبادة غاية الذل مع غاية الحب لله - جل وعلا -.

وبتعريف أشمل وأوسع: العبادة: اسم جامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة سواء كانت اعتقادية أو قولية أو فعلية.

كل ما يُحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة على الجوارح والباطنة في القلوب فإنه عبادة لله ﷻ، وما لا يرضاه الله فإنه ليس عبادة لله ولو كان الإنسان يريد التقرب به إلى الله.

فالذي لا يرضاه الله لا يكون عبادة لله ولو حَسُن قصد الإنسان فيه،

فالبُدْع والخُرَافات والشركيات لا تصلح عند الله ﷻ؛ لأن الله لا يرضاها، ولم يأذن بها.

فالعبادة اسم جامع لكل ما يُحبه الله، والله لا يُحب الكفر، ولا يُحب الشرك، ولا يُحب البدع والمُحدثات ولا يرضاها، وإنما يُحب الطاعات، ويُحب الاتباع والافتداء بالرسول ﷺ والعمل بما شرعه الله ﷻ، هذا هو الذي يرضاه الله ويُحبه، وهذا هو العبادة.

ثم قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ لَمَّا كانت العبادة لا تصح إلا بالإخلاص لله ﷻ؛ نبه الله على ذلك فنبه على ما يفسد العبادة وهو الشرك، فإن الإنسان لو عَبَدَ الله في الليل والنهار وأتى بكل عبادة يعرفها ولكنه أشرك بالله شيئاً؛ فإن عبادته لا تنفعه مهما أتعب نفسه فيها، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٢٥].

فالشرك لا تصح معه عبادة، فالذي يعبد الله ويعبد غيره لا تنفعه عبادته ولا تصح عبادته كما قال الله ﷻ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»^(١). الله لا يقبل عملاً فيه شرك، وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ يشمل الشرك الأكبر والأصغر، الشرك الأكبر المخرج من الملة، والشرك الأصغر الذي لا يُخرج من الملة؛ لقوله: ﴿شَيْئًا﴾ فهو نكرة في سياق النهي فتعم الشرك الأكبر والأصغر.

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢٢٨٩/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك تشمل كل ما عبَدَ من دون الله؛ لأن بعض الناس يظن أن الشرك عبادة الأصنام فقط، والشرك أشمل من هذا: فيشمل عبادة الأولياء والصالحين، والملائكة والرسل، وعبادة الأحجار والأشجار، فيشمل عبادة كل ما تعلقت به القلوب من دون الله ﷻ كعبادة القبور والأولياء والصالحين، هذا أكبر الشرك، وهو يُحِبِطُ جَمِيعَ الأَعْمَالِ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٨٨].

فمن تعلق بغير الله في جلب نفع أو دفع ضرر؛ فقد أشرك بالله ﷻ، وبالتالي تكون عبادته هباءً منثوراً، قال الله -جل وعلا-: ﴿وَقَدْ مَنَّاَ عَلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. الله سَمَاهُ «عملاً» لكنه هباءً منثور؛ لأنه لَمْ يُخْلِصْ لَهِ ﷻ.

وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَمَكْرٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٢٩]. لاحظوا يا عباد الله سماها «أعمالاً» فدل على أنهم يعملون وأنهم أتعبوا أنفسهم، لكن لما كان عملهم على غير أساس صحيح صار مثل السراب الذي هو انعكاس شعاع الشمس في القيعان وقت الظهيرة، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَهُ مِنْ بُعْدٍ ظَنَنْتَهُ مَاءً يَجْرِي؛ لأن شكله شكل الماء، كذلك عمل الكافر شكله شكل العمل، ثُمَّ مَاذَا تَرَوْنَ حَالَةَ هَذَا الْإِنْسَانِ الظَّمْثَانِ الَّذِي تَعَبَ وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى هَذَا الَّذِي يَحْسَبُهُ مَاءً لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، ماذا تكون حالته؟!

كذلك الكافر والمشرِك في الآخرة ماذا تكون حالته والعياذ بالله؟

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]. أسأل الله العافية.

هذا هو الحق الأول، حق الله الذي خلق العباد من أجله، ويبين هذا قوله ﷺ في حديث معاذ ﷺ قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وإن حق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»^(١).

إذن رجعت الفائدة للعباد؛ سلموا من العذاب، وإذا سلموا من العذاب نالوا الثواب والرضا من الله ﷻ.

هذا هو حق الله، وهو أعظم الحقوق، وأكبر الحقوق، وألزم الحقوق، وهو الأساس الذي إذا ضاع ضاعت جميع الأعمال، وضاعت جميع الحقوق، وإذا وجد وصلح استقامت الأمور وصلحت الأعمال، بدأ به أولاً؛ لأنه الأساس، وهو القاعدة، فبدونه لا مصلحة من الحياة ولا فائدة في الحياة الدنيا، وإذا ضاعت الحياة الدنيا ضاعت الحياة الآخرة، ضاعت الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٣٧/٧) وفي مواضع من الصحيح، من حديث معاذ بن جبل ﷺ.

وَالْآخِرَةُ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ [الحج: ١١]. فمن ضيع دنياه ضاعت آخرته.

هذا هو حق الله - جل وعلا - ولذلك يجب على المسلمين أن يتعلموا التوحيد ويعملوا به ويتعلموا ضده وهو الشرك ويتجنبوه.

يجب أن يتعلموه بدقة وعناية في مدارسهم وفي مساجدهم، وفي مجالسهم، يتدارسون هذا الأمر العظيم ويدعون إليه، والدعوة يجب أن تكون مركزة على التوحيد والعقيدة؛ لأنها الأساس، ثم بعد ذلك تتناول بقية الإصلاحات، أما أن نهتم بالإصلاحات الجانبية ونترك العقيدة فنحن مثل الذي يعتني بجسم ليس له رأس، كذا الدين، إذا ضاع التوحيد ضاع بقية الدين.

على الدعاة أن يهتموا بهذا الأمر وأن يركزوا عليه، وأن تعقد له الندوات والمحاضرات والدروس حتى يتقرر ويثبت ويتضح للناس، وحتى تستقيم الأمور وتصلح الأحوال، هذا هو المطلوب وهو الأساس.

هذا هو الذي إذا وقع فيه الخلل فسدت الدنيا والآخرة، أما بقية الأمور فلو قدر أن يقع فيها خلل فإنه يكون غرضة للمغفرة والتوبة من الله - جل وعلا -، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

جميع الذنوب يرجى أن الله يغفرها مهما عظمت، لكن الشرك يقول الله - جل وعلا - فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

ويقول: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ مُشْرِكِي اللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. هل بعد هذا البيان بيان !!؟

• الحق الثاني: حق الوالدين:

حيث يقول تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يعنى: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، فجاء حق الوالدين بعد حق الله مباشرة؛ لأن أعظم المحسنين إليك من الخلق هم الوالدان، ربياك صغيراً واعتنيا بك، حملتك أمك كُرْهاً ووضعتك كُرْهاً، كم لاقت من المشقة في تربيته، وإمالة الأذى عنك، أَرْضَعْتِكْ مِنْ ثَدْيِهَا، قامت عليك، والوالد يكد، ويكدح، ويكتسب، ويعرض نفسه للأخطار من أجل أن يطعمك ويغذيك، فكل من الوالدين تظافرا في إنتاجك وفي تكوينك حتَّى صرت بشراً وصرت رجلاً.

ما أحد عطف عليك من الناس غير الوالدين في مهديك، لَمَّا نَزَلْتَ مِنْ بطن أمك مَنْ الذي حَنَّ عليك؟ ولهذا يقول -جل وعلا- في الآية الأخرى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

مهما عملت من البر فإنك لن تقوم بحق الوالدين، كان رجل يطوف بالكعبة وهو حاملٌ لوالدته على ظهره وهي كبيرة السن يطوف بها بالكعبة، فرأى ابن عمر رضي الله عنهما قال: يا ابن عمر، هل تراني قد وفيتها

حقها؟ قال: لا، ولا بزفرة من زفراتها ولكنك مُحسن، واللّه يجزي على الإحسان.

إن حق الوالدين عظيم ولهذا جاء بعد حق اللّه - جل وعلا - في الترتيب في كثير من آيات القرآن في هذه الآية: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَتْهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الشرك باللّه، وهو معصيتهما وعدم الإحسان إليهما، فالعقوق خطير جدًا، وحري بمن عق والديه أن يُعاجل بالعقوبة، وأن يُرزق أولادًا يعقونه كما عق والديه.

وهذا أمر تساهل فيه كثير من الناس اليوم، تجد الولد من حين يتوظف يخرج في بيت مستقل ويترك الوالدين على فقرهم وعلى حاجتهم وعلى كبر أسنانهم، ينزل عنهما تمامًا، بل ربّما أنه في بعض المُجتمعات أن الوالدين إذا كبرا يُودَعان دور العجزة حتّى يموتا، ولا يعطف الولد عليهما. هذه مظاهر العقوق - والعياذ باللّه -.

وحَتّى لو لم يصل الأمر إلى هذا فإن كثيرًا من الأولاد اليوم يتكبرون على الوالدين ويصفونهما بالجهل وبعدم الإدراك وبالعفلة وبكل الذم،

وأنهما أصحاب أفكار ضيقة، وأن الولد متنور وعارف، فيتكبر على والديه ويُجازيهما بالإعراض ونكران الجميل؛ ولذلك ورد أن دعوة الوالد مستجابة، فإذا دعا الوالد على ولده -والعياذ بالله- فإن دعوته مستجابة، أو دعا له بخير فإن دعوته مستجابة، فاغتنم دعاء الوالدين لك واحذر من دعائهما عليك.

• الحق الثالث: حق ذي القربى :

والقربة هم الذين تربطك بهم قرابة نسبية من قبل الأب أو من قبل الأم، فالأعمام وأبناء الأعمام والإخوة وأولاد الإخوة؛ هؤلاء تربطك بهم القرابة من جهة الأب، والأخوال والخالات والأجداد والجَدات من قبل الأم تربطك بهم القرابة من قبل الأم، فتصل القرابة ولو قطعوك. ولهذا جاء في الحديث: «ليس الواصل بالمُكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رَحْمُهُ وصلها»^(١).

أما إذا كنت لا تواصل من أقاربك إلا من يواصلك؛ فهذه مكافأة ليست صلة رحم، الواصل الذي يصل الرحم وإن قطعت؛ هذا هو الواصل.

وصلة الأرحام وبر الوالدين تكون بالكلام اللين وبالزيارة والنفقة إذا احتاجا، وإدخال السرور عليهم وتوقيرهم واحترامهم كل هذا من حقوقهم.

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٧/ ٧٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

• ثم ذكر حق اليتامى والمساكين :

واليتيم : هو الصغير الذي مات أبوه الذي يقوم برعايته ، فجعل المسلمين في محل والده يقومون برعايته .

والمساكين : هو الذي لا يجد ما يكفيه فيعطى كفايته ، وبهذا يُجبر كسّر هذين الصنفين : اليتيم والمساكين في المجتمع المسلم .

• الحق السادس والسابع والثامن : حق الجار :

وهو من يسكن إلى جانب سكنك أو قريباً منه ، وقد ذكر النبي ﷺ أن الجيران ثلاثة :

١- جار له ثلاثة حقوق : وهو الجار القريب المسلم له حق القرابة ، وحق الإسلام ، وحق الجوار .

٢- وجار له حقان : وهو الجار المسلم غير القريب له حق الإسلام ، وحق الجوار .

٣- وجار له حق واحد : وهو الجار الكافر .

• الحق التاسع : وحق الجوار بأنواعه الثلاثة : هو كف الأذى عنه ، وبذل الخير له ، وإيصال النفع له .

ثم ذكر سبحانه حق ابن السبيل : وهو المسافر المنقطع به دون بلده ؛ فيعطى ما يوصله إلى بلده من الزكاة وغيرها ولو كان غنياً في بلده .

• الحق العاشر : حق ملك اليمين من الأرقاء :

وذلك بالإنفاق عليهم وعدم تكليفهم من الأعمال ما لا يطيقون ،

وإذا كلفهم أن يعينهم ، ويدخل في ذلك ما يملكه الإنسان من البهائم ،
فيحسن إليها ويرفق بها ويؤمن لها ما تحتاجه من العلف والماء ،
ولا تحمّلها ما لا تطيق .

هذا هو دين الإسلام ، دين العدالة والرحمة .

والحمد لله رب العالمين .

وصلّى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد ، وآله وصحبه أجمعين .

المصادر والمراجع

- ١- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الريان للتراث ودار الحديث، القاهرة- ١٤٠٨هـ.
- ٢- سنن الترمذي: مُحَمَّد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار المَكْتَبَة الإسلامية - تركيا - استنبول.
- ٣- صحيح الإمام البخاري: مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٤- صحيح الإمام مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

أسباب نجات الأمة

أسباب نجاة الأمة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

﴿أما بعد﴾ :

فإن الله ﷻ من حكمته أجرى الامتحان والابتلاء على بني آدم من أول الخلق إلى آخره ، أولهم : أبوهـم آدم ﷺ ، وما جرى له من المحنة والابتلاء مع عدوه إبليس الذي حسده وتكبر عليه ، ماذا حصل لآدم ﷺ وزوجه حواء ﷻ .

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ وَفَقَ الْأَبْوِينَ لِلتَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ ﷻ : ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

فتاب الله عليهما ، قال تعالى : ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] .

(١) مُحاضرة ألقىـت بمـدينة الرياض ، حي السويدي ، الخميس ، بتاريخ ١٥ / ذي القعدة / ١٤٢٤ هـ . بإجماع عبد الله بن سعود رَحِمَهُ اللهُ .

وكذلك توالى المحن على بني آدم عبر القرون بين الرسل وأتباعهم، وبين أعدائهم من الكفار والمُنافقين شياطين الإنس والجن قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. ولكن الرسل وأتباعهم من المؤمنين أنجاهم الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

فغير الرسل لا ينجو إلا بالإيمان، ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

بهذا الوصف، وصف الإيمان، فإذا تمسك المؤمنون بإيمانهم، وثبتوا على دينهم نجاهم الله ﷻ من الفتن، وجعل العاقبة لهم على مدار الأزمان إلى أن تقوم الساعة، والدنيا دول.

والحق منصور ومُمتحن فلا تعجب فهذه سنة الرحمن

وهذه حكمة الله -جل وعلا- من بعد أن يتميز أهل الإيمان من أهل النفاق، قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

[العنكبوت: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَهُمْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ

يَبْعَثُ ﴿مُحَمَّدٌ: ٤﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ
بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [مُحَمَّدٌ: ٤-٦] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَصُورُوا اللَّهَ يَصْرُكُمْ وَلَيَبِيتَ أَقْدَامَكُمْ﴾
[مُحَمَّدٌ: ٧] .

فلا تعجب في هذه الأيام من تطاول الكفار والمنافقين على أهل
الإيمان وأهل الإسلام ، لا تعجب هذه سنة الله في خلقه : ﴿لَيَمِيزَ اللَّهُ
الْحَيِّثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا
فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] .

لا تعجب إذا حصل للمسلمين في هذا الزمان من أعداء الله من
الكفار باختلاف توجهاتهم ونحلهم ، ومن المنافقين والذين في قلوبهم
مرض من الذين يدعون الإسلام إن حصل على المسلمين من هؤلاء
وهؤلاء ما ترونه وتسمعونونه من الابتلاء والامتحان .

ولكن لا بد من الصبر ، ولا بد من الاحتساب : ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾
[الأعراف: ١٢٨] .

قال تعالى : ﴿تَتَّبِعُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ
تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

وفي الآية الأخرى : ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ
اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠] .

بهذا الشرط: الصبر والثبات وعدم التنازل عن شيء من الدين لأجل إرضاء الكفار والمنافقين مهما كلف الأمر ومهما بلغ الأمر، لا بد من الثبات، ولا بد من الصبر، كما قال -جل وعلا-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله عند هذه الآية: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»^(١).

أما بدون صبر ولا يقين، فإن الإمامة صعب منالها، ونبينا ﷺ في آخر حياته وعظ الناس كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٤٢/٢٨).

(٢) رواه أبو داود في سننه برقم (٤٦٠٧) كتاب السنة، باب: لزوم الجماعة، ورواه الترمذي، برقم (٢٦٧٨) كتاب العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ورواه ابن ماجه برقم (٤٢، ٤٣)، المقدمة باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ورواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٧١٨٢، ١٧١٨٤)، ورواه الدارمي في سننه، برقم (٩٥) في المقدمة، باب: اتباع السنة، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

النَّبِيِّ ﷺ في هذه الوصية أوصانا بتقوى الله، وهي كلمة جامعة تجمع خصال الخير كلها، والتقوى معناها: أن تجعل بينك وبين ما تخاف وقاية تقيك منه.

تقيك من المحذور، تجعل بينك وبين الرمضاء وقاية تقي رجلك، وبينك وبين الشوك وقاية تجعل بينك وبين السلاح وقاية تقيك منه، تجعل بينك وبين الحر والبرد وقاية تقيك منه، هذا في الأمور المحسوسة.

وكذلك تجعل بينك وبين غضب الله وعقابه وبين النار وقاية، بتقوى الله - جل وعلا - بفعل أوامره، وترك نواهيه، لا يقيك من عذاب الله وغضب الله ومن النار، لا يقيك الحصون والجنود والسيوف، وإنما يقيك: تقوى الله ﷻ بفعل أوامره وترك نواهيه.

ثم قال: «والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد». هذا من أسباب النجاة أن الأمة تطيع وتسمع لولي أمرها حتى يكون لها جماعة، ويكون لها دولة، ويكون لها قوة، ويكون لها جنة تتقي بها الأعداء، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولا تتم الجماعة إلا بقيادة، إلا بإمام، ولا تتم القيادة إلا بسمع وطاعة لولي الأمر ما لم يأمر بمعصية الله: «وإن كان عبداً حبشياً».

مهما كان هذا الأمير، حتى ولو كان ليس له نسب عربي، ونسب قبلي، فالعبرة ليست بالنسب؛ وإنما العبرة بالمنصب، فولي أمر المسلمين يطاع؛ لأن هذا من مصلحة المسلمين، يحصل به جمع

الكلمة، إلا ما استثناءه الرسول ﷺ من قوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١).

فهو لا يُطاع في المعصية لكن يُطاع فيما عدا المعصية، ليس معنى ذلك أنه إذا أمر بمعصية أننا نخرج عليه ونشق العصا، لا؛ بل لا نطيعه في تلك المعصية؛ لكن نطيعه في الأمور الأخرى التي ليس فيها معصية. ثم بيّن ﷺ ما يكون في المستقبل، وأن الأمة بحاجة إلى هذه الوصية، وهي السمع والطاعة لولي الأمر فقال: «فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين»^(٢). هذا سبب آخر من أسباب النجاة.

السبب الأول: السمع والطاعة لولي أمر المسلمين.

السبب الثاني: التمسك بسنة الرسول ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ﷺ، فهم خلفاء الرسول ﷺ، مع التمسك بسنة الرسول ﷺ.

وقال: «اختلافاً كثيراً». وليس «اختلافاً يسيراً»؛ إنما هو كثير وكثير، ولا ينجي الأمة من هذا الاختلاف الكثير إلا التمسك بسنة

(١) رواه البغوي في شرح السنة برقم (٢٤٥٥)، باب: الطاعة في المعروف من حديث النواس بن سَمْعَانَ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٦٦/٥)، برقم (٢٠٦٧٢) من حديث الحكم بن عمرو الغفاري رَوَاهُ صَحِيحُ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ برقم (٧١٤٤، ٧١٤٥)، وصحیح الإمام مسلم برقم (٤٧٦٣، ٤٧٦٥، ٤٧٦٦).

(٢) تقدم في (ص ٣١٢).

رسول الله ﷺ، وما كان عليه خلفاؤه الراشدون، وما كان عليه المهاجرون والأنصار.

قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولما أخبر ﷺ أنه سيحدث اختلاف وافتراق قال: «افتרכת اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتרכת النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستختلف هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. قلنا: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابي»^(١).

فلا ينبغي من فتنة الاختلاف في كل وقت - ولا سيما في آخر الزمان - إلا التمسك بسنة الرسول ﷺ وأصحابه، هذا الذي ينبغي من النار؛ ولذلك سُميت فرقة أهل السنة والجماعة سُميت الفرقة الناجية من الفتن والناجية من النار يوم القيامة، وما عداها فإنه لا ينجو «كلها في النار إلا واحدة». لمخالفتها وافتراقها إلا من ثبت على الحق.

(١) رواه أبو داود في سننه برقم (٤٥٩٦) كتاب السنة، باب: شرح السنة، ورواه الترمذي في سننه برقم (٢٦٤٢)، أبواب الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، ورواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٣٧٧)، كلهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه ابن ماجه في سننه، برقم (٣٩٩٢) كتاب الفتن، باب: افتراق الأمم، من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يحصل الثبات على الحق وعلى سنة الرسول ﷺ والصحابة إلا بالعلم النافع، كيف تثبت على شيء وأنت تجهله؟ لا بد أن نتعلم سنة الرسول ﷺ وما كان عليه هو وأصحابه؛ حتى نثبت عليه ونتمسك به.

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاء الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهتدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. فقلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١).

يطلب من الرسول أن يُبين له ما يفعل عندما يحصل من الشر في المستقبل حتى يكون على علم منه، وحتى يسلم منه، وهذا لا يحصل عفواً فلا يحصل إلا بالعلم، أسئلة، أسئلة.

وهذا تعلم من الرسول ﷺ فلما بين له ﷺ ما يحصل بعده من

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٦٠٥) كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

الاختلافات المتكررة، قال له حذيفة: «ما تأمرني يا رسول الله إن أدركني ذلك؟ قال: أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم». هذا مثل قوله ﷺ: «عليكم بتقوى الله، والسمع والطاعة»^(١).

ولا تذهب مع الفرق الطائشة؛ بل عليك بالثبات والتأني والفقه في دين الله، والنظر إلى ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه فتأخذ به.

عليك بالسمع والطاعة لولي أمر المسلمين، وتكون مع جماعة المسلمين، قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم». قلت: يا رسول الله، فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ فقال: اعتزل تلك الفرق كلها. ما دام ليس لها جماعة ولا إمام يسرون على كتاب الله وعلى سنة رسوله فاعتزلها كلها؛ لأنها كلها على ضلال فلا تكن معها «ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يأتيك الموت».

أما ما دام يوجد للمسلمين جماعة وإمام، فلا تنفرد؛ بل كن مع المسلمين حتى تنجو، وتسلم.

كذلك من أسباب النجاة: التمسك بعقيدة التوحيد، وإفراد الله - جل وعلا - بالعبادة، وتجنب الشرك الأكبر والأصغر، هذا هو أصل العقيدة، وهذا أصل النجاة من النار لمن تمسك به.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

(١) تقدم في (ص ٣١٢).

ومعنى ﴿ءَامِنُوا﴾. الإيمان هو التوحيد، ويكون عبادة الله، وترك عبادة ما سواه.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ﴾. أي: لَمْ يَخْلَطُوا توحيدهم ﴿بِظُلْمٍ﴾. أي: بشرك؛ لأن الشرك إذا خالط التوحيد أفسده، فلا يستقيم التوحيد مع وجود الشرك أبداً، ضدان لا يجتمعان فلا يجتمع توحيد وشرك أكبر، أما الأصغر فيمكن أن يجتمع مع الإيمان.

فالظلم هنا هو الشرك، كما فسره بذلك النبي ﷺ، لما أشكلت هذه الآية على الصحابة، وقالوا: «يا رسول الله، أينا لَمْ يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس بالذي تعنون، إنه الشرك، أَلَمْ تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿يَبْتَغِي لَا شُرَكَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]».

فالمراد بالظلم في هذه الآية: الشرك، فمن سلم من الشرك حصل له الأمان في الدنيا والآخرة، وحصلت له الهداية، بأن يكون على الحق.

وقال ﷺ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

بهذا الشرط، لا تحصل هذه المطالب العظيمة إلا بهذا الشرط ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾. إذا حصل هذا الشرط: عبادة الله، وترك عبادة ما سواه؛ حصلوا على هذه الوعود الكريمة من الله ﷻ؛ يستخلفهم في الأرض... يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم،

يبدلنهم من بعد خوفهم أمناً .

• وهذه مقاصد عظيمة لا تَحصل إلا بالتوحيد، وهو عبادة الله - جل وعلا - وترك عبادة ما سواه، وكذلك تَجنب البدع؛ لأن البدع بريد الشرك .

ولهذا قال ﷺ: «وإياكم ومُحدثات الأمور، فإن كل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(١) .

وفي رواية: «وكل ضلالة في النار»^(٢) . فكما نتجنب الشرك نتجنب البدع، فتجنب الشرك، وإفراد الله بالعبادة هو معنى لا إله إلا الله، ومعنى مُحَمَّد رسول الله: ترك البدع؛ لأن الرسول هو الذي جاءنا ببيان الحق والدين فنحن نعبد الله على طريقة الرسول ﷺ، فهو ما ترك شيئاً خيراً إلا بيّنه لنا، وما ترك شراً إلا بيّنه لنا - عليه الصلاة والسلام - .

فهذا من أعظم أسباب نَجاة الأمة: تَمسكها بالعقيدة، تَمسكها بالتوحيد، تَجنبها للشرك، تَجنبها للبدع والمُحدثات، فأصل الأسباب المنجية من الفتن هو التوحيد، وتَجنب الشرك والبدع والمُحدثات في الدين .

وكذلك من أسباب نَجاة الأمة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من أعظم أسباب نَجاة الأمة، فما دام الأمر بالمعروف

(١) تقدم في (ص ٣١٢) .

(٢) رواه الإمام النسائي في سننه (٣/ ١٨٨، ١٨٩، برقم ١٥٧٨) كتاب صلاة العيدين، كيفية الخطبة .

والنهي عن المنكر موجودين فإن الأمة تنجو، وإذا تركت الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هلكت كما ذكره الله لنا في قصة بني إسرائيل لما اعتدوا في السبت، ونهاهم الصلحاء عن اعتدائهم فلم يمتثلوا وسكت جماعة من الصلحاء لم ينهوهم، بل قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمَ اللَّهِ مُهْلِكُهمْ أَوْ مُعَذِّبُهمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهمْ يَنْقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

قال الله ﷻ: ﴿وَسَأَلَهُمِ الْفَرِيقَةُ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

اعتدوا في يوم السبت لصيد الحيتان، وقد نهاهم الله عنه؛ لكن احتالوا عليه بوضع الشباك التي تمسكه لهم، أي: يوم الأحد، ثم يأخذونه يوم الأحد يظنون أنهم لم يعتدوا على حرمة الله، ويوم السبت تكثر فيه الحيتان؛ فتغريهم بالصيد ابتلاءً وامتحاناً ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمَ اللَّهِ مُهْلِكُهمْ أَوْ مُعَذِّبُهمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهمْ يَنْقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ولما لم يقبلوا النصيحة أنجي الله الذين نهوهم وأهلك المعتدين، قال تعالى: ﴿أَلْبَحِينَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْإِسَاءِ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]. فلم ينج إلا الذين أنكروا المنكر.

فلا نجاة لهذه الأمة إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكما

مَثَلُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالَّذِينَ يَقْعُونَ فِي الْمُنْكَرَاتِ شَبَّهَهُمْ ﷺ بِقَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ - أَي: اقْتَرَعُوا وَعَمَلُوا الْقِرْعَةَ - أَيُّهُمْ يَكُونُ فِي أَعْلَى السَّفِينَةِ، وَأَيُّهُمْ يَكُونُ فِي أَسْفَلِهَا - فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا، فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِ السَّفِينَةِ: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا نَأْخُذَ مِنْهُ الْمَاءَ، وَلَا نُوْذِي مِنْ فَوْقِنَا - يَرِيدُونَ خَرْقَ السَّفِينَةِ، وَهُمْ فِي عِبَابِ الْبَحْرِ - فَلَمْ يَرْجِعُوا لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْفَضْلِ وَالتَّقَى، بَلْ يَرِيدُونَ أَنْ يَسِيرُوا عَلَى رَأْيِهِمْ، وَهَذَا مِثْلٌ مِنْ وَقَعِ فِي الْمُنْكَرِ.

قَالَ ﷺ: «مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ - وَهُمْ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ -، وَالْوَاقِعُ فِيهَا - وَهُمْ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْمُنْكَرَاتِ - كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا - أَي: اقْتَرَعُوا - عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي الْأَسْفَلِ يَأْخُذُونَ الْمَاءَ مِنْ فَوْقٍ، فَقَالُوا: لَا نُوْذِي مِنْ فَوْقِنَا؛ بَلْ نَخْرُقُ فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَنَأْخُذُ الْمَاءَ، فَلَوْ خَرَقُوهُ لَغَرِقَتِ السَّفِينَةُ بِالْجَمِيعِ، فَإِذَا أَخَذَ الَّذِينَ فِي أَعْلَى السَّفِينَةِ عَلَى يَدِ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا وَمَنَعُوهُمْ مِنَ الْخَرْقِ نَجَوْا جَمِيعًا، وَلَوْ تَرَكُوهُمْ يَخْرُقُونَ، لَهَلَكُوا جَمِيعًا»^(١).

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه برقم (٢٤٩٣) كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه؟ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، ونصه: «مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعُ فِيهَا كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرَوْا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُوْذِ مِنْ فَوْقِنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا».

هذا مثال واضح : أن أهل المعاصي وأهل الفجور والشهوات لو تركوا لأهلكوا الأمة ، فلا بد أن أهل العلم والرأي وأهل الدين ، لا بد أن يأخذوا على أيديهم ، حَتَّى ينجو المُجتمع كله من عذاب الله ، فإن تركوهم في المعاصي والمخالفات والشهوات هلك الجميع : الصالح والطالح .

قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] .

العقوبة إذا نزلت على العصاة ، فإنها تأخذ الصالح والطالح إلا من أنكر فإنه ينجو ، وأما من لم ينكر فإنه يهلك ، ولو كان صالحاً يهلك مع الهالكين ، كما في قصة أصحاب السبت .

الذين سكتوا لم يذكر الله عنهم شيئاً ، إنما ذكر الذين ينهون عن السوء ، أما الفريق الثاني الذين قالوا : ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا﴾ [الاعراف: ١٦٤] . الله - جل وعلا - سكت عنهم ، فلا يُدرى هل هم مع الناجين أو مع الهالكين ؟ والظاهر أنهم مع الهالكين .

ولما قرأ ﷺ قوله تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩] . سبب اللعنة أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، فلعنهم الله جميعاً .

قال ﷺ : «كلا ، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ،

ولتأخذن على يد السفية، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم^(١).

كثير من الناس يلقون بالمسئولية على غيرهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقولون: هذا على الهيئة... نعم، الهيئة عليها واجب عظيم وهذا عملها؛ لكن أيضاً أنت عليك مسئولية.

كل مسلم عليه مسئولية، قال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنكراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٢).

أما أن تقول: هذا على الهيئة فقط، ولا تنكر ولا تنهى، ولا تنصح ولا تدعو إلى الله، ولا تعظ ولا تذكر؛ هذا هلاك: «مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

ثم أنت عليك واجب أيضاً: عليك أهل بيتك: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْاً

(١) رواه أبو داود في سننه برقم (٤٣٣٦) كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي، ورواه الترمذي في سننه برقم (٣٠٥٠) كتاب أبواب تفسير القرآن، سورة المائدة، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، وعزاه إلى الطبراني بالزيادة، وهي قوله: «أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض...». إلخ الحديث (٢٦٩/٧) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم (١٧٧) كتاب الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ
اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٦﴾ [التحریم: ٦٦].

الهيئة لا تعلم عن الذين في بيتك وولي الأمر لا يدري عمّا في
بيتك، أنت المسؤول عمّا في بيتك من النساء، والأولاد، والضيوف،
أنت المسؤول؛ لأن الناس لا يدرون عمّن في بيتك، وقد قال ﷺ:
«كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راعٍ، والرجل راعٍ على
أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها، وولده، فكلكم راعٍ وكلكم
مسئول عن رعيته»^(١).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشترك لا يُعفى منه مسلم؛
لكنه بحسب الاستطاعة، فصاحب البيت يغير باليد؛ لأن له اليد على
أهل بيته، فالله أعطاك اليد على أهل بيتك فتخرج المنكر من بيتك،
تضرب وتؤدب، ولا أحد يعترض عليك؛ لأنك راعٍ على أهل بيتك.

فعلى المسلمين أن يقوم كل منهم بما ولّاه الله: فصاحب البيت
مسئول عن أهل بيته، مدير المدرسة مسئول عن مدرسته وما فيها من
أسرة التدريس والطلاب.

مدير الإدارة مسئول عن الموظفين الذين يتبعون إدارته، كل واحد
عليه مسئولية بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الله

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٢٠٠) كتاب النكاح، باب: المرأة راعية في
بيت زوجها، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وورد الحديث في مواضع من
الصحيح بروايات، وألفاظ، وزيادة.

بالحكمة والموعظة الحسنة .

أما من كان يسكت، ويقول: الواجب على فلان!! لا يا أخي، فلان عليه مسئولية، لكن أنت عليك مسئولية، فلا بد من هذا الأمر، هذا هو سبيل النجاة للأمة :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يقوم كل واحد من المسلمين بما يستطيع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتركه وهو يستطيع أبداً حتّى ولو بقلبه .

فلا أحد يعجز أن ينكر المنكر بقلبه بمعنى: أنه يكره المنكر ويتعد عنه وعن أهله، فلا أحد يعجز عن هذا .

نعم، يعجز عن اليد، يعجز عن اللسان؛ لكن القلب لا أحد يعجز عن إنكار المنكر بقلبه، ولهذا قال ﷺ: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(١).

فالذي لا ينكر المنكر بقلبه ليس بمؤمن، وليس في قلبه ولا حبة خردل من الإيمان، إذا رضي بالمنكر ولم ينه عنه ولم يكرهه بقلبه فليس فيه إيمان .

● فهذه أسباب نَجاة الأمة مُجَمَّلة :

أولاً: السمع والطاعة لولاة الأمور بالمعروف .

(١) هذا جزء من آخر حديث أوله: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي . . .» الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم (١٧٩) كتاب الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ثانيًا: التمسك بالكتاب والسنة: ﴿وَأَعْيِزُوا يُحْبِلَ اللَّهُ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ثالثًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل بحسب استطاعته ومقدرته: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

كذلك من أسباب نجاة الأمة: التآخي والمحبة بين المسلمين، قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»^(١).

وقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢).

فالتناصح بين المسلمين واجب، قال ﷺ: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٣).

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم (٦٥٨٥) كتاب البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاذهم، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم (٦٥٨٦) كتاب البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاذهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم (١٩٦) كتاب الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

والمحبة بين المسلمين واجبة، قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(١).

والإصلاح بين المسلمين واجب، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال: ﴿وَلَن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وكذلك من أسباب نجاة الأمة: زوال البغضاء بينهم، وزوال السخرية بعضهم من بعض: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

هذا ومن أسباب النجاة: أن يكون المجتمع نزيها متحابا فيما بينه، لا يغش المسلم أخاه في المعاملة، ولا يخدعه في البيع، ولا يخطب على خطبته، ولا يبيع على بيعه، ولا يشتري على شرائه، يحترم أخاه،

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم (١٩٤) كتاب الإيمان، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمن، وأن محبة المؤمنين وإفشاء السلام سبب لحصولها، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَيَحْتَرَمُ حَقُوقَهُ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات -، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه»^(١).

هذا ومن أسباب النجاة: أن تسود المحبة بين المسلمين، والتناصح والتأمر بالمعروف، والتناهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، هذه أسباب النجاة.

وقال الإمام مالك رحمته الله: «لا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها». وأولها صلح بالإسلام والاستقامة على الدين، كذلك آخرها لا يصلح إلا بما أصلح أولها.

أما إذا انفصل آخر الأمة عن أولها؛ حصل الهلاك كما يقول دعاة الضلالة الآن، يقولون: هذه الأوامر والنواهي، إنما هي للأولين لا تصلح لهذا الزمان!!

الولاء والبراء لا يصلح لهذا الزمان، وهذا يعني: أن القرآن انتهى العمل به بزعم هؤلاء الطغاة، لا يُعمل به، الآن نحتاج إلى دين جديد، وإلى نظام جديد، وما كان الرسول ﷺ رسولاً للعالمين، ورسولاً إلى أن تقوم الساعة، ورسائله قائمة، وباقية إلى أن تقوم الساعة، ودينه باقٍ

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم (٦٥٤١) كتاب البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث أوله: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا...». الحديث.

إلى أن تقوم الساعة، وكامل وشامل لكل زمان ومكان.

فالذين يقولون: إن هذه أمور انتهت بانتهاء الزمان الأول، ونحن الآن في عالم جديد نحتاج إلى نظام جديد؛ فهذا قول أهل الباطل، قول المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، هذه مقالة الذين يَدَّعون الإسلام.

فإذا جاءت الفتن والمحن؛ ظهر نفاقهم وظهر ما في صدورهم، فهؤلاء لا عبرة بهم، ولا يُلتفت إليهم، ولا يُصغى إلى كلامهم، وعلينا أن نَمضي على طريق الحق والصواب والسنة، وإن استهزأ بنا من استهزأ، أو سخر منا من سخر، أو تكلم فينا من تكلم، لا علينا من هؤلاء.

نحن نسير على طريق واضح، وعلى طريق بَيِّن، على طريق كتاب الله وسنة رسوله، قال ﷺ: «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه»^(١).

والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

هذه كلمات أحببت أن أقولها، والموضوع واسع، ويحتاج إلى

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ (٨٩٩/٢) كتاب القدر، باب: النهي عن القول بالقدر، ومستدرك الحاكم (٩٣/١) بلفظ آخر، كتاب العلم، خطبته ﷺ في حجة الوداع، وانظر: صحيح مسلم برقم (٢٩٥٠) كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ.

كلام أكثر؛ ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك كله، بل حسب الاستطاعة،
والحرُّ تكفيه الإشارة، وخير الكلام ما قلَّ ودلَّ، ولمَّ يطل فيُمل.
وصلَّى الله وسلَّم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وأصحابه أَجْمَعِينَ.
